

قضية اللفظ والمعنى

أ. م. د. عادل هادي حمادي العبيدي

كلية الآداب . جامعة الأنبار

مقدمة :

تعد مسألة اللفظ والمعنى من المسائل الكبيرة التي شغلت النقاد القدماء ، فقد قام جدال بينهم في تحديد مصطلح كل منهما في إعطاء النص الأدبي قيمته الفنية ، ومن ثم في تقويم شخصية كل منهما في الريادة والأولوية . ولعل المحفز لهذا الجدال هو الإعجاز القراني ، أو فكرة الإعجاز في القرآن وارتباط الفكر النقدي والبلاغي بمضامينها بوصفه عربياً إسلامياً ، فكان النزاع محتتماً في أي منهما يكمن الإعجاز ، في اللفظ وتأليفه ، أو في المعنى ودلالته ، أو بهما معاً ، أم بالعلاقة المتولدة بينهما؟ . ويمكن حصر أبعاد هذه القضية والجدل فيها في أربعة مباحث :

- المبحث الأول : تفضيل الألفاظ : ويتمثل بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وابي هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) .
المبحث الثاني : الجمع بين اللفظ والمعنى : ويتمثل بابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، وقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ).
المبحث الثالث : وحدة اللفظ والمعنى : ويتمثل بابن رشيق القيرواني (ت ٤١٤هـ) وابن الاثير (ت ٦٣٧هـ) ، حيث انهما لم يفصلا بين اللفظ والمعنى.
المبحث الرابع : العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى : ويتمثل بعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) .

The Case of Utterance and Meaning

Abstract

It is difficult for any critic to separate utterance and meaning because meanings once arise in the soul of the artist in the creative process they become inseparable from their utterances. But when the critic deals with them separately it is done purposefully which is mainly the uncovering of the aspects of these two principles and their artistic features. The two critics IbnTabatiba and Al-Jurjani complement each other. While IbnTabatiba pays more attention to meaning than to utterance, Al-Jurjani does the opposite. They agree on them through the agency of the context.

Assistant Professor Dr. AdilHadiHammadi Al-ubaidy
Head of the Arabic Department
College of Arts-Anbar Universi

المبحث الأول: تفضيل الألفاظ

لا شكَّ في أن الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) هو أول من قدَّح شرارة هذا الجدل ، تعلقاً منه بمذهب الصيغة ، وتعصباً للفظ ، ومشايعة للصياغة سواء فيما رآه وقرره ، أو بما نقله وأقحمه من آراء العلماء والأدباء والنقاد ، وهو في كل ذلك يضع الأناقة والجودة والجمال في الألفاظ ، فالمقياس عنده للقيمة الأدبية إنما يتقوم في جزالة اللفظ، وجودة السبك ، وحسن التركيب لأن ((المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والقروي، والبدوي ، إنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك)) (١) .

وتبعه على هذا الرأي أبو هلال العسكري ، فحذا حذوه ، وسلك منهجه حتى تقاربت الألفاظ، وتشابهت العبارات ، فتراه في فصل يعقده لذلك ، وهو الفصل الأول من الباب الثاني من الصناعتين ، يقول : " الكلام - أيَّدك الله - يحسن بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته وتخير ألفاظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشابه أعجازه بهواديته ، وموافقة مآخيره لمباديته، حتى لا يكون في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطالعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه ، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً وبالتحفظ خليفاً كقول معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفَى لَرِيْبَةٍ	وَلَا حَمَلْتَنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رَجُلِي
وَلَا قَادَنِي سَمَعِي وَلَا بَصْرِي لَهَا	وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي
وَأَعْلَمْتُ أَنِّي لَمْ تُصِيبْنِي مُصِيبَةٌ	مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابْتَ فَتَى قَبْلِي
وَأَسْتُ بِمَآشٍ مَا حَيَّبْتُ لِمُنْكَرٍ	مِنَ الأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مَوْتَرًا نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ	وَأُوْتِرَ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

ومما هو فصيح في لفظه جيد في رصفه قول الشنفرى: [من الطويل]

أَطِيلُ مِطَالِ الجُوعِ حَتَّى أُمِيئُهُ	وَأَضْرِبُ عَنْهُ القَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا اجْتِنَابُ العَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ	يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدِيٍّ وَمَأْكَلٌ
وَلَكِنَّ نَفْسًا مَرَّةً مَا تُقِيمُنِي	عَلَى الضَّيْمِ إِلَّا رِيْثَمَا أَتَحَوَّلُ (٢)

فمعيار سلامة الكلام عنده تنحصر في سلامة اللفظ وسهولته ونصاعته ، وجودة مطالعه، ورقة مقاطعه، وتشابه أطرافه، وما نسجه على هذا المنوال وفي هذا الهدف، أما إصابة المعنى (فليس يطلب من المعنى إلا ان يكون صواباً) (٣) .

(١) الحيوان للجاحظ ١٣١/٣ - ١٣٢ ، وانظر الصناعتين ٦٣ - ٦٤ .

(٢) الصناعتين ٦١ - ٦٢ ، وينظر شروح لامية العرب للشنفرى الأزدي ٣٣ وما بعدها .

(٣) الصناعتين ٦٤ .

ثم يعزز رأيه بشواهد وأمثلة يختارها تُعنى بالصياغة اللفظية ، تاركاً وراءه المعاني، عازفاً عن قبولها قبولاً حسناً ، فهي مبتدلة يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي - كما عبر عن ذلك الجاحظ قال :

" وليس الشأن في إيراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أودِ النظم والتأليف " (١) .

فالعسكري معني بالهيكل وأناقته ، ومفتتن بالألفاظ وإطارها باعتبارها الوسائل التي يتفاضل بحسن اختيارها الأدباء ، وهو يحكي ما قرره الجاحظ ويتناوله بالكشف والإيضاح، ولا جديد عنده عليه ، فهما إذن يصدران عن قاعدة واحدة تشكل هذا الرأي الخاص ، ولعل مرد هذا الرأي في تعصبيهما الظاهر للفظ إنما يرجع إلى دوافع نفسية وسياسية وعصبية قبلية ، وان صح هذا فهذه الدوافع لا تشكل حكماً علمياً مجرداً، ولنقف عند هذه الدوافع :

أولاً : الدافع النفسي : لا شك في أن اللفظ الرقيق ، والجرس الناعم ، والتركيب الناصع ، مظاهر تسيطر على النفوس فتتجذب نحوها انجذاباً ، وجزالة الأسلوب تهيمن على القلوب فتنبهر بها وتتساق إليها ، سيراً وراء هذا المظهر البراق ، ولعل الجاحظ والعسكري قد افنتتا بهذا المظهر فسيطر عليهما نفسياً حتى عاد ذلك قناعة ورأياً ، فكانت آراؤهما تعبيراً عما يعتقدان .

ثانياً : الدافع السياسي : كانت السلطة الزمنية في المدة ما بين عصري الجاحظ والعسكري مدةً مزدهرة بالترجمة والتأليف والكتابة وصولاً البيان ، وكان الخط السياسي معنياً بتقويم الكُتّاب ، فعليهم تقوم أركان الدولة، وبهم ينهض مجد الحكم، ومنهم يخرج عطاء الناس ، وبهم تتفاخر الأمراء والوزراء والولاة ، والكُتّاب إنما يتميزون بالأداة الصالحة والمهارة الفنية ، وهما يستقيمان باللفظ والتحكم فيه، واخضاع تلك المهارة لأغراض الدولة ومتطلبات السلطان ، وليست أغراض الدولة أغراضاً علمية فتحتاج إل عميق المعاني وموضوعية البيان ، وإنما هي أغراض سياسية تحققها قعقة الألفاظ وزبرجة الهياكل ، فإذا أضفنا إلى هذا مكانة الجاحظ وشخصية العسكري وما يقتضي مركزهما من التريث والتدبر حفاظاً على النفس ، وقضاء للمصالح ، فما المانع أن يندفعا هذا الاندفاع إلى إرضاء أولئك الكتاب ، أو حذراً من ولاة الأمور ، ولكن هذا التعليل يقضي بأن الجاحظ والعسكري وأنصارهما قد تجاهلوا كيانهم الحضاري ومجدهم العلمي ، وفرطوا بذوقهم الادبي وترانهم العقلي راغبين أو راهبين .

ثالثاً : الدافع القومي : ومردّه في إعطاء هذا الرأي وبخاصة الجاحظ هو محاولة دحض مزاعم الشعبيين الذين حاولوا تفضيل نصوصهم الأدبية على النصوص العربية بكثرة معانيها ، وتدقق أغراضها ، وتعدد موضوعاتها ، فكان رد الفعل لدى النقاد العرب هو التقليل من قيمة المعاني وإعطاء القيمة للصناعة اللفظية .

(١) هذا الفصل كله في كتاب الحيوان ١٣٠/٣ - ١٣٢ ، وفيه " إنما الشعر صياغة وضرب من النسيج وجنس من التصوير " وانظر : الصناعتين ٦٣ - ٦٤ .

المبحث الثاني: الجمع بين اللفظ والمعنى

ذهب جماعة من النقاد وفي مقدمتهم ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) إلى القول بالجمع بين اللفظ والمعنى مقياساً في البلاغة ، وميزاناً للقيمة الفنية ، فرأى ان الشعر يسمو بسموهما وينخفض تبعاً لهما ، وقد قسم الشعر إلى أربعة أضرب :

- ١- ضرب حسن لفظه وجاد معناه .
- ٢- ضرب منه حسن لفظه وحلا ، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى .
- ٣- ضرب منه جاد معناه ، وقصرت ألفاظه .
- ٤- ضرب منه تأخر معناه ، وتأخر لفظه (١) .

فاللفظ والمعنى عند ابن قتيبة يتعرضان معاً للجودة والقبح ، ولا مزية لأحدهما على الآخر ، ولا استثناء بالأولوية لأحد القسيمين ، فقد يكون اللفظ حسناً وكذلك المعنى، وقد يتساويان في القبح ، وقد يفترقان .

ولم يعد ابن قتيبة الموافقين له على رأيه ، وفيه من الوجاهة ما يدعمه ، فقد سار على منهجه قدامة بن جعفر في نقد الشعر وتحدث عن اللفظ والمعنى ، وجعلهما قسيمين في تحمل مظاهر القبح وملامح الجودة فيما أورده من آراء في عيوب الألفاظ والمعاني (٢) .

وإذا وافقنا ابن قتيبة في تقرير الموضوع الأصل وهو سليم جداً ، فإننا يمكن ان نخالفه في تطبيق الحكم على النماذج التي اختارها دليلاً على صحة دعواه . ولا سيما في الضرب الثاني الذي حسن لفظه وقصر معناه ، ، فإنه يستشهد بهذه الأبيات (٣) :

ولمّا قضينا من منى كلّ حاجةٍ	ومسّح بالأركان من هو ماسحُ
وشدّت على حذب المَهاري رحالنا	ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا	وسألت بأعناق المطي الأباطحُ

ثم يعقب عليها ناقداً ومعلقاً بقوله : "هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخرج ومطالع ومقاطع ، وان نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح ، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الابطح " (٤) .

(١) الشعر والشعراء ، تح : احمد شاكر ٦ - ٩ .

(٢) نقد الشعر : ١٩٤ - ٢١٤ .

(٣) تنسب الابيات إلى كثير عزة وهي في ديوانه : ٥٢٥ .

(٤) الشعر والشعراء : ٨ طبعة دار الكتب العلمية ١٤ .

فابن قتيبة يحكم على سذاجة المعنى ، ويدعي في الألفاظ سلس العبارة ، وجودة المخارج ، وحسن المقاطع ، ولكننا يمكن ان نخالفه في موضعين :

الأول : اعتبار الألفاظ في سياقها جيدة المخارج والمقاطع والمطالع ، وقد يكون بعضها كما رأى ، ولكن اقل ما يؤخذ على هذه الألفاظ توالي حروف الحلق في حاءاتها وهاءاتها والعين والغين مما يمنع جريانها في النطق وانصبابها في التحدث إلا بتكلف ، وهي على وجه الضبط : حاجة ، ومسح و هو ، ماسح ، على ، حذب ، المهاري ، رحالنا ، الغادي ، هو ، رائح ، الأحاديث ، اعناق ، الاباطح وذلك ؛ لأن كثرة توالي حروف الحلق وازدحامها في الكلام تؤدي إلى خلل في الفصاحة وهو ما عُرف عند البلاغيين بالتنافر ، ويضربون على ذلك مثلاً بقول العربي " تركتها ترعى الهعخع" .

الثاني : إنَّ المعاني التي عابها ، ونثرها نثراً ، لا حاجة إلى بيان ما اشتملت عليه من رقة وزهو وسلاسة ولاسيما في البيت الثالث منها . وبكفي ان احيلك على عبد القاهر الجرجاني في كشف جمالها وبيان روعتها ، فقد تناولها بالتعليق في قوله : " إن أول ما يتلقاتك من محاسن هذا الشعر أنه قال : (ولما قضينا من منى كل حاجة) فعبر عن قضاء المناسك باجمعها والخروج من فروضها وسُننِها من طريق أمكنه أن يقصّر معه اللفظ وهو طريقة العموم : ثم نبّه بقوله : (ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ، ثم قال (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زمّ الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة (الأطراف) على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطوفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط، كما توجهه إلفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكيف يليق بحال من وفقّ لقضاء العبادة الشريفة ورجا حُسن الإياب... ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبّق بها مفصّل التشبيه... فصرّح أولاً بما أوماً إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفي حالة التوجه إلى المنازل وأخبر بعد ذلك بسرعة السير، ووطأة الظهر، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح" (١).

فما رأيناه في الألفاظ ، وما قرره عبد القاهر للمعاني ، كان سبب مخالفتنا لما ذهب إليه ابن قتيبة في التطبيق ، وموافقتنا له في الحكم وعموم الأصل .

(١) أسرار البلاغة : ٢٢ - ٢٣ .

المبحث الثالث: وحدة اللفظ والمعنى

عدَّ ابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) اللفظ والمعنى شيئاً واحداً متلازماً ملازمة الروح للجسد ، فلا يمكن الفصل بينهما بحال ، قال : ((اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه كارتباط الروح بالجسد : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه ... فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه))^(١).

ويبدو لي ان هذا النوع من التعقيد والتقرير اقرب إلى القصد والاعتدال منه إلى التمثل والتعقيد ، فالصورة عند ابن رشيق لا تكون واضحة الرؤية خصبة التخطيط إلا من خلال عنايتها باللفظ لتجعله الوسيط الدال على المعنى المراد لتأكيد الصلة ووشيح النسب بينهما ، لأن التفكير في اللفظ والمعنى تفكير جملي يفكر فيه الأديب مرة واحدة وبحركة عقلية واحدة ، فإذا رتبت المعاني في الذهن ترتيباً منطقياً ، وإذا تحددت في الفكر تحديداً يجمعه ترابط المعاني وتداعياها ، هذا الترابط وهذا التداعي الذي يرضاه المنطق أو يرضاه تصور الأديب ، انحدرت هذه المعاني على اللسان بألفاظها الملائمة بها خطابة ، وانحدرت على القلم بألفاظها المطاوعة لها كتابة وشعراً من غير تهذيب واختيار لهذه الألفاظ^(٢) .

وهذا المنهج الذي اختطه ابن رشيق تكاد تتجذب اليه نفوس قسم من النقاد القدماء والمعاصرين ، وفي طليعة القدماء ابن الاثير ، الذي يرى ان عناية العرب بألفاظها إنما هو عناية بمعانيها ، لأنها أركز عندها وأكرم عليها ، وان كان يسوغ بل يعترف بان عناية الشعراء منصباً على الجانب اللفظي ، ولكنها وسيلة لغاية محمودة وهي ابراز المعنى صقياً ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ، ورققوا حواشيها ، وصقلوا اطرافها ، فلا تظنن ان العناية اذ ذاك إنما هي بالفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني^(٣) .

ولا تفسر هذه المحاولة من ابن الاثير بالافتداء بخطوة ابن رشيق ، وهي وان لم تُصرح بمزج اللفظ والمعنى في قالب واحد ، ولكنها تشير إلى قيمة المضمون والشكل معاً في صقل الصورة ، وتلمح إلى طبيعة التلاؤم بينهما .

وقد لاقى هذا الاتجاه سيرورة وانتشاراً عند كثير من النقاد المُحدثين - وان لم يثبت اطلاعهم عليه ، لأنهم لا يشيرون إلى مصدره وكأنهم مبتكرون - فربطوا بين اللفظ والمعنى حتى ليخيل إليك انهما شيء واحد . وحذبوا على تطوير نظرتهم هذه وصعدوا بها إلى مستوى الحقائق الثابتة من خلال إشباع البحوث استدلالاً ، ونسجاً على منوالها ، حتى اخذت طريقها إلى مستوى النظريات والصيغ النهائية ، كما ان الأسلوب والفكر شيء واحد ، وان من الخطأ محاولة فصل الشكل عن المادة^(٤) ، حيث ينظر إلى الألفاظ بأنها أساليب والى المعاني بأنها أفكار ، ثم يُخطئ القائلين بفصل الألفاظ عن هذه المعاني .

(١) العمدة في محاسن الشعر وادابه ونفده : ١٢٤/١ .

(٢) بلاغة ارسطو بين العرب واليونان : ١٥١ - ١٥٢ .

(٣) المثل السائر ١/٣٥٣ .

(٤) النقد الادبي : وليم فان اوكونور ١٠٢ .

ويقول (دونالد استوفر) باتحاد الشكل والمحتوى ، ويرى فيهما شخصية واحدة لا يمكن ان ينظر إلى اجزائها في استيعابها وتحديد النظرة الفاحصة إليها فيقول : ((إن القصيدة تتمتع بشخصية متماسكة حية ، وأنها وحدة تتألف من عناصر مختلفة كثيرة ، وهي متماسكة ومتوازنة ، من حيث الشكل والمحتوى بل يتداخل فيها الشكل والمحتوى على نحو لا يمكن معه تصور كل منهما على حد))^(١) .

ويعتقد الناقد الامريكي (كليث بروكس) باستحالة فصل المادة عن الشكل وبالعكس في أي حال من الاحوال لأنّ تركيبها قد اتحد فلا يبرز إلا كلا موحداً فيقول ((إن جوهر القصيدة لا يبرز إلا كلاً موحداً ، أي يستحيل علينا تجريد الجوهر وصياغته في شكل آخر ، لأن الجوهر في هذه الحالة هو المركب الجديد من بناء لا ينفصل عن موسيقاه ، والصور والدلالات المتشابكة والمواقف المعينة ، أي القصيدة ذاتها))^(٢) .

هكذا كانت نظرة النقاد الغربيين إلى اللفظ والمعنى ، فإذا استقبلنا النقاد العرب المعاصرين وجدنا الفكرة أعمق رسوخاً ، وأصلب عوداً ، والنظرة أغوص إمعاناً ، وأكثر ذبوعاً ، تارة بالاتحاد بينهما ، وأخرى بعدم الانفصال ، وثالثة بوحدة المؤدى بين الشكل والمحتوى .

يرى الاستاذ احمد الشايب عدم امكانية فصل القيمة الفنية بين اللفظ والمعنى ويرى كلاً منهما انعكاساً للآخر بسبب شدة الارتباط بين المادة والصورة أو بين اللفظ والمعنى ، أو بين الفكرة والعاطفة من ناحية ، والخيال واللفظ من ناحية ثانية ، اذ كان هذان صورة لذينك ، واي تغيير في المادة يستتبع نظيره في الصورة والعكس صحيح^(٣) .

ويرى الدكتور بدوي طبانة ان اللفظ والمعنى حقيقتان متحدتان ، ومنزلتهما واحدة لا تمايز بينهما ، والعناية بأحدهما عناية بالطرف الاخر ، والاهتمام يجب ان يقسم بالتساوي لأنه اهتمام بالعمل الأدبي وزنة للقيمة الفنية وليست منزلة المعنى دون منزلة اللفظ في تقدير القيمة الفنية للعمل الادبي ، ولا شك عند المنصفين أو وجوب مراعاة جانب المعنى لا يقل شأناً عن وجوب الاهتمام بالألفاظ^(٤) .

وقد ابدى الدكتور شوقي ضيف اهتماماً كبيراً بهذه المسألة ، ووجه لها عنايته الفائقة، وخصّص لها الصفحات العديدة في كتابه (النقد الادبي) وتوصل إلى ان الفصل بين اللفظ والمعنى، أو الشكل والمضمون أمر مستحيل ... ليس هناك محتوى وصورة، بل هما شيء واحد ، ووحدة واحدة ، إذ تتجمع في نفس الأديب الفنان مجموعة من الأحاسيس ويأخذ تصويرها بعبارة يتم بها عمل نموذج أدبي ، وأنت لا تستطيع أن تتصور مضمون هذا النموذج أو معناه من دون قراءته ، وكذلك لا تستطيع أن تتصور صورته أو شكله أو لفظه ، دون أن تقره ، فهو يعبر عن

(١) وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي : ١٥١ .

(٢) النقد التحليلي : ١١٤ .

(٣) أصول النقد الادبي ، احمد الشايب : ٢٤٦ .

(٤) دراسات في نقد الادب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث : ١٣٨ - ١٣٩ .

الجانبين جميعاً مرة واحدة ، وليساً - هما - جانبين ، بل هما شيء واحد ، أو جوهر واحد ممتزج متلاحم ، ولا يتم نموذج فني بأحدهما دون الآخر ...
 وإذن فلا فارق بين المعنى والصورة أو اللفظ في نموذج أدبي ... ومعنى ذلك أن مادة النموذج الأدبي وصورته لا تفترقان فهما كل واحد. وهو كل يتألف من خصائص جمالية مختلفة ، قد يردّها النظر السريع إلى الخارج أو الشكل ، ولكننا إن أنعمنا النظر وجدناها ترد إلى الداخل والمضمون ، فهي تتطوي فيه ، أو قل تنمو فيه... وإذن فكل ما نلقاه في كتب البلاغة من وصف اللفظ إن تأملنا فيه وجدناه في حقيقته يرد إلى المعنى ، حتى الجناس وجرس الألفاظ ، فضلاً عما توصف به الكلمات من ابتذال أو غرابة. والمضمون بهذا المعنى يتحد مع الشكل ، فهو البناء الأدبي كله وهو الحقائق والأحاسيس النفسية الكامنة فيه " (١) .
 والحق ان ادراك هذه العلاقة بين اللفظ والمعنى ، واعتبارهما وحدة متجانسة في دلالتها على الصورة ، يمكن اعتباره امتداداً منطقياً لجزء مهم من رأي الفريق الرابع من فرقاء المعركة (إن صح التعبير) .

المبحث الرابع: العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى

يتمثل هذا المبحث في عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) في كتابيه (دلائل الاعجاز) و (اسرار البلاغة) فقد هدّب عبد القاهر من المفاهيم المرتجلة لدلالة الألفاظ والمعارف وأقامها على أصل لغوي وعلمي رصين ، وأدرك مسبقاً سر العلاقة القائمة بين اللفظ والمعنى ، ورفض القول بإيثار أحدهما على الآخر ، واعتبرهما بما لهما من مميزات وخصائص واسطة تكشف عن الصورة ، فقال بالنظم تارة ، وبالتأليف تارة أخرى ، مما لم يوفق إليه الفرقاء في النزاع ، والملاحظة عنده أن النظم عبارة عن العلاقة بين الألفاظ والمعاني ، وأنها تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل (٢) .
 وقد يخيل للبعض أن عبد القاهر من أنصار المعنى دون اللفظ نظراً لتعامله على القائلين بأولوية اللفظ ، وليست الألفاظ عنده (إلا خدم المعاني) (٣) ، ولكن عبد القاهر يشن هذه الحملات ، ويصول ويجول في قلمه وما يضره من أمثلة وشواهد ، وما يقرره من قواعد ، لا انتصاراً للمعنى ، وإنما هو تنفيذ لآراء القوم وتدليل على مفهوم الصورة عنده بالنظم ، ولا نظم في الكلم والترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ، ويبني بعضها على بعض ، وتُجعل هذه بسبب من تلك (٤) .
 ويعود عبد القاهر بالنظم إلى أصل قائم على أساس من علم النحو ، وطبيعي أن النحو يُعنى ببناء الكلمة وإعرابها ، ومعرفة هذه الصيغة . وإن كانت مُنصبةً على اللفظ . فإنها ترتبط بمعنى اللفظ في وضعه بمكانه من المعنى المراد ، لأن المعاني لا يُحلّ إبهامها ما لم يقصد إليها

(١) ينظر : في النقد الادبي : ١٦٣ - ١٦٥ .

(٢) دلائل الاعجاز : ٤٠ .

(٣) دلائل الاعجاز : ٤٠ ، واسرار البلاغة : ٥ .

(٤) دلائل الاعجاز : ٤٣ .

من خلال الألفاظ ، والألفاظ لا يفهم مؤداها مالم تُضبط صياغةً وتصريفاً ونحواً ؛ بناءً وعرابياً على حد سواء ، وهما متعاونان معاً على كشف العلاقة التي عبّر عنها بالنظم وليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف منهاجه التي نهجت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء (١) ، متخذاً بالإضافة إلى هذا ؛ التشبيه والمجاز والاستعارة مضماراً لشرح آرائه ، وميداناً لاستدراكاته على أصحاب اللفظ ، وأن النظر إلى هذه المقومات اللفظية بأقسامها وأنواعها لا يعود لألفاظها فحسب ، وإنما للمعاني وما تضيفه على الألفاظ مما يُكوّن حُسْنَ النظام وجوده التأليف ، وهو العلاقة المترتبة على فهم القسيمين اللفظ والمعنى (٢) .

وحقاً إنك لتجد عبد القاهر قوي الحجة ، عجيب المناظرة ، في جولته النقدية هذه، فلا تكاد تنتهي من فصل بدأه حتى تقع في فصل مثله جديد يزيدك سخرية بأولئك، جرحاً وتقويماً ، وارجاعاً بأرائهم إلى ما اعتادوه من دون رؤية وتمييز من شغف بالبديع وتعلق بالصناعة ، حتى ليصعب فهم ما يقصدون من الكلام ، فالسامع يخطئ في عشاء ، من كثرة التكلف وشدة التمثل .

الخاتمة

ومن خلال ما تقدم تتضح أبعاد الجدل بين اللفظ والمعنى ، وقد تجلّى فيها أنّ الجاحظ والعسكري معنيان بحسن الصياغة وجزالة الألفاظ وقد علّنا هذا الرأي بصدوره عن دوافع نفسية وسياسية وقومية ، انتهت بأناقة اللفظ وجرس الكلمة .

ولا حظنا بعد ذلك المقاييس النقدية عند ابن قتيبة بإرجاعها القيمة الفنية إلى القسيمين اللفظ والمعنى ، واتفقنا معه في أصل الحكم والموضوع وناقشنا عن صحة تطبيقه لهذا الحكم . ووقفنا عند رأي ابن رشيق في عدم الفصل بين اللفظ والمعنى وتكوينهما للوحدة الفنية في أي نموذج أدبي، وصاحبنا سيرورة هذا الرأي عند القدماء والمحدثين الغربيين والعرب ، واستأنسنا بأراء ثلاثة من النقاد العرب : احمد الشايب وبدوي طبانة وشوقي ضيف ، ووقفنا مع الأخير وقفة المقوم لرأيه والقائل بتفصيله ورسمنا من خلال ذلك طريقتنا في تحديد أبعاد القضية ، ثم عرضنا لرأي عبد القاهر ، واختتمنا الموضوع ببعض من كلامه وشذرات من تحقيقاته ، ورأينا أن له الفضل في كشف العلاقة بين اللفظ والمعنى بما لهما من مميزات متنافرة .

(١) دلائل الاعجاز : ٦١ .

(٢) دلائل الاعجاز : ٦١ .

روافد البحث

- اسرار البلاغة : عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تح : هـ. رتير ، استنبول ، مط : وزارة المعارف ، ١٩٥٤ م .
- أصول النقد الادبي : أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٧ / ١٩٦٤م .
- بلاغة ارسطو بين العرب واليونان ، ابراهيم سلامة ، مكتبة الانجلو المصرية، ط ٢ / ١٩٥٢ م .
- الحيوان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، تح: عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٤٥ م .
- دراسات في النقد الادبي ، بدوي طبانة .
- دلائل الاعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تح : محمود شاكر .
- ديوان كُنَّير عزة ، تح: د. احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧١ م .
- شروح لامية العرب ، للعلماء الاجلاء ، البرد والزمخشري وابن عطاء الله المصري ، وابن زاكور المغربي ، للشنفرى الأزدي ، شرح وتحقيق : أ. د. عبد الحميد هنداوي، دار الافاق الجديدة / القاهرة ، ط ١ / ٢٠٠٦ م .
- الشعر والشعراء : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، حققه د. مفيد قميحة ، ومحمد امين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط ٢ / ٢٠٠٥م .
- الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الدينوري ، تح : أحمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
- العُمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ) ، ط ٢ ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٥ م .
- في النقد الادبي : د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر .
- كتاب الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، تح : علي البجاوي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
- المثل السائر ، أبو الفتح نصر الله ضياء الدين بن الاثير ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر .
- النقد الادبي : وليم فان اوكونور .
- النقد الادبي عند اليونان : بدوي طبانة ، دار الثقافة ، بيروت .
- نقد الشعر : لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، تح : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢ / ١٩٧٨ م .
- وحدة القصيدة في الشعر العربي : حياة جاسم .